# انتشار الإسلام في الهند
## حتى نهاية الغزنوى

د. محمد عبد الحميد الرفاعى *

### غزوات المسلمين الاستطلاعية فى الهند :

الهند شبه جزيرة ناتئة فى وسط آسيا الجنوبية على شكل قلب يحدها من الشمال قوس جبلى عظيم تشكله جبال الهملايا وهندوكش وسليمان ، تتخلله بعض الممرات مثل « خيبر » و « بولان » و « جومال » . كانت السبيل الوحيد الذى يربط الهند بباقى آسيا ، وعن طريقها دخلتها أفواج المهاجرين والغزاة منذ أقدم العصور كالآريين والاسكندر الأكبر .

وفى داخل القوس الجبلى منطقة السهول الشمالية ، وهى أوسع المناطق السهلية فى العالم كله ويبلغ امتدادها أكثر من ألفى ميل ، وتضم واديين كبيرين هما وادى السند ، ووادى الكنج . وهى المنطقة التى يتركز حديثنا عليها فى هذا البحث ، إذا كانت ميداناً لفتوحات المسلمين ، الأولى . ولنشاط الغزنويين من بعدهم .

وقد وقفت المناطق الجنوبية من الهند ، وهى هضبة الدكن بمرتفعاتها الوعرة حجر عثرة أمام تقدم الفاتحين والغزاة فى أعماق الهند (١) .

وكان جغرافيو العرب يطلقون على هذه البلاد اسم السند ، واستخدموا هذا الاسم بمدلولين . أولهما أكثر اتساعاً ويشمل كل ما عرفه المسلمون من شبه القارة الهندية ، والثانى أخص من الأول ، ويراد به حوض نهر السند (٢)

وترجع معرفة العرب بالهند إلى أقدم عصور التاريخ المعروف لنا ، عن طريق التجارة ، ولكن المرجح أن التجار الهنود ، لا العرب ، هم الذين كانوا يأتون بمحاصيلهم ليبيعوها فى

---

* مدرس بقسم التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة .

السواحل العربية ، وظل ذلك حتى الفترة السابقة للإسلام ، فبدأ العرب يجوبون البحر إلى الهند ، واتسع نطاق التجارة بينهما ، ووصل العرب إلى « كورموندل » و « ملبار » و « سومطرة » وجزائر الأرخبيل حتى بلغوا بلاد الصين ، وكان لهم طريقان بحريان عبر الخليج العربي والبحر الأحمر ، وطريق برى يمر ببلاد الشرق الشهيرة كدمشق وبغداد وسمرقند وبلاد الفرس وكشمير (٣) .

وبدأ المسلمون يتطاعون إلى حمل راية الإسلام إلى بلاد الهند فى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، بعد أن حققوا انتصاراتهم العظيمة فى إيران ، ولكن ذلك لم يتعد حملات برية وبحرية محدودة النطاق على ثغور الهند القريبة منهم ، استهلها عاملهم على البحرين عثمان بن أبى العاص بتوجيه حملة إلى « تانة » ، ولكن عمر بن الخطاب كما عهد عنه كان أشد ما يكون حرصاً على دماء المسلمين ، ولذا أرسل يحذر هذا الوالى من مغبة طموحه ويقول له : « إنى أحلف لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم » ، ودفع هذا التحذير الوالى المتحمس إلى التريث فترة من الوقت ، ثم عاود حملاته فى شىء من الحذر ، ويبدو أنه كان على ثقة من نجاحه حتى يأمن غضبه الخليفة ، فأرسل أخويه الحكم إلى بروص ، والمغيرة إلى خور الديبل (٤) فى غزوتين ناجحتين .

وعندما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قام بدراسة أحوال الهند وطبيعة أرضها عن طريق مخابراته وعيونه ، فأخافوه من وعورتها ، ولذا عدل عن غزوها ، ولما خلفه على ابن أبى طالب رضى الله عنه قام عامله الحارث بن مرة بعدة غزوات على الهند ، انتهت باستشهاده سنة ٤٢هـ ، وأصبحت حملات المسلمين أكثر جرأة وأكبر حجماً فى بداية العصر الأموى ، وقام عمالهم فى الولايات الشرقية بفتوحات ناجحة فى الهند ، وتمكن بعض المسلمين من الاستيطان هناك (٥) .

ظل نشاط المسلمين فى الهند مقصوراً على هذه الغارات الثغرية البرية والبحرية ذات الطابع المحدود حتى عهد الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ — ٩٦ هـ) فتحولت إلى فتح منظم يرمى إلى توطيد أركان الإسلام ، واستقرار المسلمين فى هذه البلاد ، وألقيت مسئولية الفتح على عاتق الحجاج بن يوسف الثقفى الذى تولى إدارة الأقاليم الشرقية من الدولة الإسلامية ، فوجه قائده المقدام محمد بن القاسم إلى إقليم السند ، فتمكن من فتح « الديبل » ، وانتصر على جيوش « داهر » (٦) ، واختط للمسلمين فى هذه المدينة خططاً ليقيموا فيها ، وأنشأ لهم مسجداً ، وظل هذا القائد يتقدم فى بلاد الهند ويلحق الهزائم بداهر حتى سقاه كأس المنية ،

واستولى على أرجاء مملكته وأهمها « الملتان » التى أسماها المسلمون « فرج بيت الذهب » لكثرة ما أفاءه الله عليهم من أموالها (٧) .

واستمر الأمويون فى سياسة الغزو والفتح العسكرى ، حتى تولى الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه ( ٩٩ — ١٠١ ) ، فانتهج سياسة أخرى فى نشر الإسلام ، ترمى إلى تأليف القلوب ، واستمالة الشعوب وزعمائها ، ونجحت سياسته هذه فى ميادين متعددة ومنها الهند ، فدخل عدد من ملوكها فى عقيدة التوحيد طواعية دون قتال ، فى مقابل احتفاظهم بعروشهم ، استجابة لعرض الخليفة ، واتخذوا لأنفسهم أسماء عربية (٨)

ولكن معرفة هؤلاء الملوك بالإسلام لم تكن قد تعمقت ، وإيمانهم لم يكن قد رسخ ، فكان بعضهم ينتهز أول فرصة فيرتد عنه ، ودفع ذلك قائد الجبهة الهندية الحكم بن عوانه الكابى إلى التفكير فى إيجاد قواعد ثابته للإسلام فى هذه البلاد ، تكون مقراً للجند ومركزاً لنشر الدين والحضارة فيما حولها ، على غرار القيروان التى بناها عقبة بن نافع فى المغرب الأدنى ، فأنشأ مدينة « المحفوظة » ، ثم أتبعها بمدينة أخرى هى « المنصورة » التى صارت بعد ذلك عاصمة المسلمين فى إقليم السند ، وتمكن من استرداد المناطق التى أعلنت خروجها عن سلطان المسلمين . (٩) وأصبح بناء القواعد سياسة متبعة لمن تلاه من قادة المسلمين .

وعندما أسقط العباسيون الخلافة الأموية وجهوا جيوشهم للقضاء على أنصار الأمويين فى السند ، وتمكن قائدهم موسى بن كعب من بسط سلطانه على الإقليم واتخذ المنصورة قاعدة لولايته .

وتواصلت جهود الفاتحين فى العصر العباسى ، واستطاع عامل المنصور هشام ابن عمرو التغلبى غزو قشمير والملتان ، ودعم الوجود الإسلامى فى إقليم السند . وظلت أحوال المسلمين مستقرة هناك حتى بدرت محاولة تمرد فى عهد المأمون من عامل الإقليم بشر بن داود الذى كان يسعى للاستقلال بحكمه ، ولكن قوات الخلافة تمكنت من إحباط محاولته والقضاء عليه .

وعاد ولاة العباسيين إلى التوسع فى بناء القواعد الإسلامية . فأسس عمران بن موسى مدينة « البيضاء » فى السند فى عهد المعتصم ، وتمكن الفضل بن ماهان من الاحتفاظ بحكم سندان فى أسرته . فكون أول أسرة إسلامية حاكمة فى السند (١٠) .

## توقف حملات الخلافة على السند وانحسار المد الإسلامى :

انعكس ضعف الخلافة العباسية ، ووقوعها فريسة تحت تسلط الجند الأتراك على نشاطها فى بلاد الهند ، فشغلت الخلافة بأمر نفسها ، ولم تعد تفكر فى جبهة الهند ، ولكن

إذا كان السيف قد أغمد ، فإن انتشار الإسلام كعقيدة لم يتوقف ، فكان للتجار المسلمين أثر كبير فى الدعوة للإسلام ، ودخل بعض ملوك الهند فى رحاب التوحيد بتأثير هؤلاء التجار فى عهد المعتصم (١١) .

وبقيت الجماعات الإسلامية التى استوطنت الهند محصورة فى بعض القواعد ، وانقطعت اتصالاتهم العسكرية والسياسية بالدولة العباسية ، فبدأوا يعتمدون على قوتهم الذاتية ، وأخذوا يندمجون فى الهنود اجتماعياً ، فأصهروا إليهم ، وتشبهوا بهم ، فكانوا يرسلون شعورهم مثلهم ، ويرتدون الأزر والميازر ، ويتحدثون بالسندية إلى جانب العربية ، ولم يتوقف نشاطهم فى نشر الدعوة الإسلامية واللغة العربية بين السنديين (١٢)

وأخذ الهنود يسلبون المسلمين نفوذهم السياسى ويغلبون على ما فى أيديهم من مدن ، ولكنهم لم يطردوا المسلمين منها ، بل سمحوا لهم بالمقام بينهم ، وأعطوهم قدراً كبيراً من الحرية ، فتركوا لهم فى سندان مسجداً يجتمعون فيه ويدعون باسم الخليفة العباسى فى خطبهم .

وكانت الأقليات المسلمة تعيش بين الهنود كالجاليات الأجنبية ، وكان لهم ثقل ونفوذ لم يستطع الهنود تجاهله ، فكان ملكهم « بلهزا » لا يستطيع أن يولى عليهم إلا مسلماً ، وظلوا محتفظين بمساجدهم ، وشعائرهم فى «كنباية» و «قامهل» و «صيمور» و «سندان» التى تقع كلها فى مملكة بلهزا المذكور ، «وكانت أحكامهم فيها ظاهرة» كما يذكر المؤرخون (١٣) .

ولم تبق من المدن الخالصة للمسلمين وحدهم سوى المنصورة والملتان ، وكان حاكم المنصورة قرشياً من ولد الهبار بن الأسود ( أحد الفاتحين الأوائل ) ، وحاكم الملتان قرشى أيضاً من ولد سامه بن لؤى ، وكان كل منهما يدعو للخليفة العباسى ، وبرغم ذلك كان العداء والتنافر يطبع العلاقة بينهما ، ولم تتحد كلمتهما فى هذه الفترة العصيبة (١٤)

وكان من نتيجة ذلك أن تغلب جماعة من الإسماعيلية على الملتان ، وحولوا الخطبة باسم الخليفة الفاطمى ، وظلوا يحكمونها حتى فتحها الغزنويون ، أما المنصورة فلم نسمع عنها شيئاً فى كتب المؤرخين ، ويبدو أن حكمها خرج من أيدى المسلمين قبل قدوم الغزنويين .

وبذا أصبح الوجود الإسلامى فى بلاد الهند فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى — كما يقول الدكتور حسن محمود — فى مفترق الطريق ، ولم يكن باستطاعة إمارة السند

التى انحصر الوجود الإسلامى فيها أن تواجه وحدها الإمارات الهندية القوية المحيطة بها ، ولم يؤخر مصيرها المحتوم إلا تفرق كلمة الهنود . وكان حكام الملتان الإسماعيليون . — وهم القوة الإسلامية الوحيدة المتبقية بالهند — قد فقدوا الصلة بالعالم الإسلامى المجاور لانقطاع صلتهم بالمذهب السنى ، ولم يكن فى استطاعة الفاطميين فى مصر أن يمدوا لهم يد العون على هذا البعد الشاسع (١٥)

ونود هنا أن نقف وقفة لنرد على بعض المستشرقين(١٦) الذين يصفون الفتح الإسلامى للهند بأنه من أكثر قصص التاريخ تلطخاً بالدماء ، ويسمون الفاتحين المسلمين بالهمجية ، وقد أعماهم تعصبهم عن موكب الحضارة الذى زحف به المسلمون إلى بلاد كانت قبلهم حافلة بالفوضى غارقة فى ظلمات الوثنية . فإن سياسة المسلمين فى معاملة الهنود التزمت بنفس السماحة التى عاملوا بها أهل البلاد المفتوحة فى كل البقاع ، فارتفعوا بالبوذية إلى مصاف ديانة أهل الكتاب . وعاملوا أهلها معاملة المعاهدين (١٧) .

وتذكر المصادر أن محمد بن القاسم عندما فتح « الرور » فى السند صالح أهلها على ألا يتعرض لبدهم ولا يقتلهم . وقال : ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس ، ووضع عليهم الخراج ، وهذا يعنى اعتبارهم كأهل الذمة (١٨) .

وقد ذكرنا اتجاه المسلمين الحضارى ، وبناءهم للمحفوظة والمنصورة والبيضاء لتكون منارات هداية وفكر ، وإن كثيراً من الهنود دخلوا فى رحاب الإسلام طواعية ، وعندما صار النفوذ والقوة فى أيديهم لم يفكروا فى إجلاء المسلمين ، بل عاملوهم بنفس الروح الطيبة .

## فتوحات الغزنويين فى الهند :

ينسب الغزنويون إلى عاصمتهم غزنه فى أفغانستان الحالية ، وكانت قديماً قصبة لولاية زابلستان ضمن خراسان بمفهومها القديم ، ويقتضى القياس اللغوى أن نقول عند النسب إليها « غزنيون » ولكن النسب السماعى المشهور هو « غزنويون » .

وقد نجح طائفة من الجند الأتراك يتزعمهم البتكين فى الانفصال عن الدولة السامانية وإقامة هذه الدولة الجديدة . ثم آل الحكم إلى أسرة سبكتكين سنة ٣٦٦ ويعتبر هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة ، وهو الذى بدأ سياسة الانطلاق نحو الهند ، وتابع غزواته المنظمة على إقليم البنجاب فى حوض السند واستطاع أن يضم إليه إقليم « كابل » الذى يعتبر مفتاح الهند لسيطرته على المسالك المؤدية إلى السهل الهندى الخصيب (١٩) .

وأصبحت فتوحات الغزنويين فى الهند أوسع نطاقاً ، وأكثر تنظيماً ، وأبهر نتائج فى عهد ابنه الفاتح العظيم السلطان محمود ( ٣٨٧ — ٤٢١ ) وإليه يرجع الفضل فى ترسيخ أقدام المسلمين فى هذه البلاد .

واتخذت غزوات محمود فى الهند صفة الحوليات ، وكان كل عام تقريباً يشهد إحدى غزواته فيها ، وكان الشتاء فصلا مناسباً لتوقيت غزواته نظراً لمناخ الهند الموسمى الذى يمتاز بشتاء جاف وصيف حار مطير ، وكانت جيوشه تسلك الطريق الذى سلكه من قبل الاسكندر الأكبر وغيره من الفاتحين وهو الممرات الموجودة فى جبال هندوكشى وسليمان فى شمال شرقى الهند والتى تسمى باب الهند الغربى .

وتوالت انتصارات محمود العظيمة حتى استولى على إقليم السند كله وجزء كبير من إقليم الكنج ، ومن أبرز انتصاراته فتح قنوج التى قطع المسافة إليها فى ثلاثة أشهر من السير المتصل ، وبلغ تعداد جيشه عشرين ألفاً ، وفر ملكها راجيبال أمامه سنة ٤٠٧ هـ ، وكان فيها سبع قلاع على النهر المقدس الكنج ( أو كنك ) تحوى عشرة آلاف بيت للأصنام يزعم الهنود أنهم توارثوها منذ ألفى سنة ، ففتحها جميعاً فى يوم واحد (٢٠) .

وفى سنة ٤١٦ هـ قام محمود بخاتمة غزواته إلى الهند وحطم صنمهم الأعظم سومنات وهو حجر طوله خمسة أذرع ، وليست له صورة معينة ، يزعم الهنود أن الأرواح تجتمع إليه إذا فارقت الأجساد فينشئها فيمن يشاء على مذهب التناسخ ، ويقوم على عبادته ألف من البراهمة ، وثلاثمائة رجل محلوقى الرءوس ، ويغنى على بابه ثلاثمائة أمة ، وثلاثمائة رجل ، وكان الهنود يعتقدون أن ما أصاب الأصنام الأخرى على أيدى الغزنويين كان نتيجة غضب سومنات عليهما ، ومن هنا كان تصميم محمود على تحطيمه ليثبت كذب اعتقادهم ، ودافع الهنود عن صنمهم هذا دفاعاً مستميتاً ، ولكن كلمة الله كانت هى العليا ، وانتصرت راية التوحيد (٢١)

ولما كان محمود من أشد المتحمسين للمذهب السنى ، فقد قضى على مذهب الباطنية الذى كان يعتنقه حكام الملتان المسلمين الذين سبق أن ذكرناهم وكان زعيمهم يدعى أبا الفتوح ، وضمها محمود إليه سنة ٣٩٦ هـ (٢٢)

وكان من عوامل انتصار محمود فى الهند إلى جانب عزيمته القوية وحماسته الدينية ، تفرق كلمة الهنود ، وتنافر ملوكهم ، مما أتاح له أن ينفرد بهم واحداً إثر آخر ولم يتنبه ملوك الهند إلى تدارك الأمر ألا بعد فوات الأوان وتوغل الغزنويين فى بلادهم ،

فحاول بعضهم التجمع تحت قيادة الملك « بيدا » حاكم «كجوارهة » الذى نعى على ملوك الهند تخاذلهم ودعاهم إلى الانضمام إليه ووعدهم بإعادة أملاكهم التى سلبها الغزنويون . ولكن السلطان محموداً لم يسمح لهذا التجمع أن يؤتى ثماره . فبادر إلى إجهاضه قبل أن يتم ، وفى سنة ٤١٠ قصد أول المتحالفين « بروجيبال » وألحق به هزيمة نكراء . ثم اتجه إلى كبيرهم بيدا فتفرق عنه باقى الحلفاء فزعاً . واضطر إلى الانسحاب تحت جنح الظلام فغنم السلطان معسكره وتعقب جنده . وفر بيدا بنفسه وحيداً طريداً (٢٣) .

ومن العادات السائدة فى ذلك العهد اتجاه ملوك الهند إلى الانتحار إثر هزيمتهم أو وقوع فى الأسر . ففى سنة ٣٩٢ أسر محمود ملكهم « جيبال » ثم أطلق سراحه مقابل فدية قدرها خمسون رأساً من الأفيال . ولكن قومه اعتادوا ألا يقبلوا زعامة من يقع فى الأسر . فتخلى جيبال عن الملك لابنه . وفضل الانتحار على طريقة قومه . فحلق شعر رأسه وألقى بنفسه فى النار (٢٤) . وعندما استولى محمود على قلعة كلجند أثناء غزوة قشمير سنة ٤٠٧ ه نتحر ملكها أيضاً بعد أن قتل زوجه (٢٥) .

ومن عجائب الهند أن محموداً رأى فى غزوة « ناردين » سنة ٤٠٤ بيت أصنام وبه نقوش حجرية ، فأمر بترجمتها ، ففهم منها أنها تشير إلى أنه مبنى منذ أربعين ألف سنة . فاستنكر محمود ذلك . وقضى بجهل القوم (٢٦) .

ورأى فى كشمير مدينة عجيبة البناء ، يزعمون أنها من صنع الجن . أقيمت فوق الجبال لتكون بمنأى من السيول والأمطار ، وحولها سور ضخم من الحجارة الصماء ، ولها بابان . وفيها ألف قصر تحوى بيوت الأصنام ، مزينة برسوم رائعة ، ونقوش تخطف الأبصار . فأمر السلطان بتقدير تكاليفها . فقالوا إن بناءها يحتاج إلى مائتى سنة وعمال مهرة ، ووجد فيها خمسة أصنام من الذهب الأحمر . عيونها من الياقوت الثمين ، وبلغ وزن الذهب المستخلص منها ثمانية وتسعين ألفاً وثلاثمائة مثقال (٢٧) .

ولم تكن فتوحات الغزنويين فى الهند بعد محمود بن سبكتكين بنفس القوة إذ شغل أعقابه بالفتن الداخلية . وبالصراع العنيف مع السلاجقة الذين انتزعوا منهم خراسان . وهددوا دولتهم بالسقوط . وكان من أبرز فتوحاتهم فى الهند فتح قلعة هانسى التى كانت تسمى بالقلعة العذراء لأن أحداً لم يستطع فتحها قبل ذلك ، سنة ٢٤٨ فى عهد السلطان مسعود ابن محمود (٢٨) . وانتصار مودود بن مسعود على تحالف ثلاثى بين ملوك الهند هدفه استرداد ما فتحه الغزنويون وطردهم من الهند(٢٩) وتقدم إبراهيم بن مسعود إلى قلعة أوجودو بعد « لوهور » بمائة وعشرين فرسخاً » (٣٠) .

## بروز الهدف الديني في فتوحات الغزنويين :

كان للغزنويين أهداف عديدة من فتوحاتهم في الهند ، منها بسط نفوذهم ، وتوسيع دائرة ملكهم ، والإفادة المشروعة من ثروة هذه البلاد ومغانم الحروب ، ولكن لم يغب عن الغزنويين الهدف الديني ، والرغبة في نشر الإسلام ، بل كانت هي الحافز الأول للقيام بهذه الفتوحات وتحمل أعبائها .

وقد تعرضت فتوحات الغزنويين في الهند لاتهامات كثيرة من بعض المؤرخين الغربيين والهنود ، ووصفت بأنها ترمى إلى التخريب والتدمير ونهب الأموال ، وكان النصيب الأكبر من هذه الاتهامات موجهاً للسلطان محمود بن سبكتكين ، إذ وصفه ول ديورانت « باللص العظيم » ! (٣١) ، ولكن هذه الاتهامات لا تثبت أمام الحقائق التاريخية ، وسرعان ما تنجلي سحبها لتظهر شمس الحقيقة الناصعة .

فقد كان محمود حريصاً على تأكيد دوره الديني كداعية إسلامي ، وكان يسعى لكسب حب المسلمين وتعاطفهم في أرجاء العالم الإسلامي ، فيرسل إلى الخليفة العباسي الممثل لهؤلاء المسلمين في نظره ، مؤكداً ، أنه مبعوثه ومنفذ سياسته ، وأن فتوحاته في الهند تجرى بإذنـــه (٣٢) .

وعندما سأله رسول الملك بيدا حاكم كجوراهة : أي رجل أنت ؟ قال : أدعو إلى الله وأجاهد من خالف دين الإسلام ، قال فما تريد منا ؟ قال : أن تتركوا عبادة الأصنام ، وتلتزموا شروط الدين ، وتأكلوا لحم البقر (٣٣) .

ولو كان هدف محمود مجرد النهب ، والسلب لما رفض الأموال الهائلة التي عرضها الهنود لافتداء صنمهم الأعظم سومنات الذي تحدثنا عنه ، وقال محمود لرجاله : « إني فكرت في هذا الأمر ، فرأيت أنه إذا نوديت يوم القيامة : أين محمود الذي كسر الصنم ، أحب إلى من أن يقال : أين محمود الذي ترك الصنم » ، وقد شاء الله أن يعوضه خيراً ، فقد فوجئ عندما كسر الصنم بوجود جواهر في داخله تبلغ أضعاف ما عرضه الهنود (٣٤) .

وقد نصح أحد الأسرى من ملوك الهند السلطان محموداً أن ينزع الجوهر قبل أن يأمر بحرق الأصنام . وقال له : « إن أصحابك يخسرونك في الجوهر بما يعظم مقداره ، فارفعها وخلهم والإحراق » ولكن اهتمام السلطان كان منصباً على حرق الأصنام ، فلم يلتفت إلى قوله (٣٥) .

وكان حرقه للأصنام منطلقاً من عقيدته الإسلامية لا من رغبته فى التدمير . أسوة بما فعله المسلمون فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بالأصنام التى كانت حول الكعبة . ومن هنا اختلفت وجهات نظر المسلمين والهنادكة نحو محمود كما يقول المؤرخ الهندوكى برشاو الذى يختم حديثه عنه بقوله : ولكننى أقول بلا تحيز إنه كان من أعظم الشخصيات فى العالم . فقد كان سياسياً ناجحاً . يتصف بالعدل . ويحترم أهل العلم والفن » (٣٦) .

وظل الحافز الدينى أبرز الدوافع فى الفتوحات الغزنوية التى قام بها أعقاب محمود ، فقد سجل كاتب السلطان مسعود . الذى يعتبر شاهد عيان للمرحلة التى كتب عنها ، أن هذا السلطان قال عند توليه الملك : « إن قلبى يميل إلى أن نسير إلى أبعد ثغور الهند إحياء لسنة أبينا ، وشكراً لله على ما أولانا . لننال بعد الصيت ، وتقع هيبتنا فى نفوس الكفار . . » (٣٧) .

وعندما غزا إبراهيم بن مسعود ( ٤٥١ — ٤٩٢ هـ ) الهند وصل إلى موضع يقال له « دره نوره » فوجد به أقواماً من بقايا الفرس الآريين الذين غزوا هذه البلاد قديماً ، واستقروا بها ، فدعاهم إلى الإسلام ، ولم يقبل منهم غيره ، فلما أبوا قاتلهم عليه وشتتهم (٣٨)

## دور الغزنويين فى نشر الإسلام وحضارته فى الهند :

كان أول ما حرص عليه الغزنويون عقب انتصاراتهم فى الهند إقامة شعائر الإسلام ، وبث الدعاة لنشره ، وتعميقه فى قلوب من أسلموا من الهنود . وإقامة المساجد التى هى بيوت الله التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وهى أيضاً منارات العلم والفكر ، وبدأت هذه السياسية منذ عهد مؤسس دولتهم سبكتكين ، إذ تسجل المصادر أنه أقام شعائر الإسلام فى لمغان ، وهى أول فتح كبير له فى الهند (٣٩) ، وأصبح ذلك سنة لاعقابه . فترك ابنه محمود فى بهاطية بعض الدعاة ليقيموا الصلوات والشعائر ويعلموا من أسلم من أهل البلاد (٤٠) .

ومن هنا كان إصرار الغزنويين على تحطيم الأصنام وحرق بيوتها . ولم يقبلوا افتداء الهنود لها بالمال ، ولم تثنهم مقاومتهم العنيفة ، واستماتتهم فى الدفاع عنها ، وبخاصة صنمهم الكبير سومنات الذى يزعمون أنه يقوم بتوزيع الأرواح فى الأجساد على مذهب التناسخ ، ليثبتوا للهنود خطأ اعتقادهم .

وكان الغزنويين يتألفون القلوب . ويرحبون بإقبال ملوك الهند على الإسلام . فيقرونهم على ما بأيديهم ، ويبقونهم على عروشهم مقابل جزية يدفعونها كل عام ، ومنهم نواسه شاه

الذى أعلن إسلامه على يد السلطان محمود فولاه بعض البلاد . لكنه ما لبث أن ارتد ، فاقتنه السلطان الدرس القاسى وانتزع منه مملكته وولى عليها بعض رجاله سنة ٣٩٧ هـ . (٤١)

ولكن لم يكن كل ملوك الهند بهذه الصفة من الغدر والنكث ، فقد صالح ملك « نارابن » السلطان محموداً سنة ٤٠٠ هـ على خمسين فيلا ، ومالا وفيراً أعلى ن يرسل إليه بالتناوب ألفى رجل للخدمة فى غزنة ، وأوفى الملك بهذه الشروط (٤٢) .

وكان بعض ملوك الهند يقبلون على الإسلام طواعية ، مثل الملك هردب ( أو هاردتا كما ذكره آرنولد ) الذى أقبل من قاعة برنه عندما قاربها جيش السلطان محمود ، فأعلن إسلامه مع عشرة آلاف من قومه ، وتركوا عبادة الأصنام . (٤٣)

ومن العوامل التى ساعدت على نشر الإسلام فى الهند سياسة «التهجير الإجبارى» التى اتبعها الغزنويين ، فقد كان السلطان محمود يرسل من يريد التخلص منهم من أفراد وجماعات إلى بلاد الهند ليستوطنوا فيها ، وكان هذا التهجير يتم فى بعض الاحيان بأعداد كبيرة تبلغ عدة آلاف ، مثل أسرى خوارزم الذين سيرهم إلى الهند حتى يأمن انتقاضهم عليه ، ويذكر المؤرخون أن قطار الأسرى كان ممتدا من بلخ فى خراسان حتى لوهور وملتان(٤٤) ، وقد أعطاهم محمود حريتهم بعد وصولهم ووكل إليهم مهمة حماية المناطق التى فتحها وحفظها من الفساد (٤٥) .

وسار على هذا النهج ولده مسعود أيضاً ، ففى شعبان سنة ٤٢٢ هـ أمر هذا السلطان بايفاد نفر من أعيان الديلم فى صحبة قائد الهند أحمد ينالتكين ليظلوا بعيدين عن الحضرة ، كما تقرر إرسال عدد آخر من أشياعهم ومن يتعصبون لهم ، وعدد من غلمان السراى ، ووعدهم السلطان بالحرية والصلات ليستفيد منهم فى فتوحات الهند (٤٦) .

وقد ضمن الحكام الغزنويون بهذا التهجير الإجبارى التخلص من المناوئين والفئات التى يخشى من إثارتها للفتن ، وفى نفس الوقت وضعوا ثقلا بشرياً إسلامياً فى الهند يدعم الوجود الغزنوى فيها .

وقد تمكن الغزنويون — بخلاف من سبقهم من الفاتحين المسلمين — من إقرار الهند ، وإقامة حكومة لهم فيها ، وتنظيم إدارتها ، كما توغلو فيها أكثر من غيرهم ، وفى عهدهم حدث تفاعل ثقافى وحضارى بين الهنود والمسلمين ، لهذا يعتبر كثير من المؤرخين أن الفتح الغزنوى هو الفتح الحقيقى لبلاد الهند (٤٧) .

وزاد اهتمام الغزنويين بالهند واتجاههم إليها . عندما زادت ضربات السلاجقة . ثم ضغط الغوريين عليهم من ناحية الغرب . وبدأوا يفقدون ولاياتهم في خراسان وأفغانستان . فاتخذوا من الهند عمقاً استراتيجياً تلجأ إليه جيوشهم لتنظم صفوفها وتستجمع قوتها لتعاود الزحف والمقاومة . وساعد ذلك على ارتباطهم بالهند . وإضفاء الطابع الإسلامي عليها.

وفي نهاية العهد الغزنوى نقل الغزنويون ملكهم وحكومتهم إلى لوهور في الهند بعد سقوط عاصمتهم غزنة في أيدى الغوريين حوالى سنة ٥٤٥ ه واستمروا على ذلك حتى نهاية عهدهم سنة ٥٧٩ . وإذا كان ملك الغزنويين قد ضعف . فإن مكانة الهند وارتباطها بالإسلام والمسلمين قد زاد في هذه الفترة ، لانتقال عاصمة الغزنويين إليها .

وقد فتح الغزنويون الباب لمسلمي الهند للمشاركة في أعمالهم الحربية والحضارية . وولوهم بعض المناصب الإدارية والقيادية الهامة ، وكان العنصر الهندى من العناصر البارزة في جيوشهم منذعهد محمود الغزنوى (٤٨) وتزايد الاعتماد عليهم في عهد السلطان مسعود الأول . فاستخدمهم في حرب كرمان وفي قتال السلاجقة (٤٩) وأصبحوا العنصر الغالب بعد أن فقد الغزنويون ممتلكاتهم الغربية ولم تبق لهم سوى غزنة والهند ، واعتمد عليهم بهراشاه الغزنوى في صراعه مع الغوريين (٥٠) .

وكان للفرق الهندية في الجيش الغزنوى قائد خاص ، كما تولى بعض الهنود القيادة العامة ومنهم « تلك » الهندى (٥١) .

وظهر تأثير الفن الهندى في منشآت الغزنويين وآثارهم ، ولا تزال على تابوت محمود وحفيده مسعود الثالث زخارف الزهور العربية التى يتجلى فيها الطابع الهندى (٥٢) .

وبرز عديد من علماء الدين في الهند في العهد الغزنوى ذكرتهم كتب الطبقات ، فمن المحدثين عبد الصمد بن عبد الرحمن اللارهورى ، وعلى بن عمر اللاهورى ، ومخلص بن عبد الله الهندى . ومن الزهاد أحمد بن زين الملتانى ( ت ٥٧٧ ه ) ونختيار ابن عبد الله الهندى المتصوف ( ت ٥٤٢ أو ٥٤٣ ه ) ومن الفقهاء حسين الزنجانى اللاهورى ، وعمر بن سعيد اللاهورى ، ويوسف بن أبى بكر الكرديزى ( ت ٥٣١ ه ) (٥٣) .

ومن الكتب المشهورة في التصوف وحقائقه كتاب كشف المحجوب للفقيه الزاهد أبى الحسن على بن عثمان الهجويرى الغزنوى اللاهورى . وهو أحد العلماء الذين نزلوا الهند . وكان مستقراً في لاهور حتى توفى فيها سنة ٤٦٥ ه (٥٤) .

وظهر تأثير العلوم الهندية فى الفلك والرياضيات فى مؤلفات العالم العظيم أبى الريحان البيرونى الذى كان يعيش فى بلاط مسعود الأول الغزنوى ، منها مخطوط راشيكات الهند فى الرياضيات . والآثار الباقية عن القرون الخالية الذى يحوى تقويماً للشهور الهندية ، وجوامع الموجود لخواطر الهنود فى التنجيم والفلك ، وتحقيق ما للهند من مقولة فى العقائد (٥٥).

وهكذا كان للغزنويين الفضل فى استقرار الإسلام نهائياً فى شمالى الهند ، وبدأوا المسيرة الظافرة — التى أكملها من بعدهم خلفاؤهم الغوريون — فواصلوا التقدم نحو الجنوب ، ومهدت فتوحاتهم السبيل لقيام الدول الإسلامية الخالصة فى بلاد الهند ، التى عرفت باسم سلاطين دهلى ( ٦٠٢ — ٩٦٢ هـ ) ، وما تبعها من الدول المغولية الإسلامية فى الهند .

* * *

## الهوامش :

(١) محمد حبيب أحمد : بين الهند والباكستان ص ١٠ ، الشرقاوى والصياد : ملامح الهند والباكستان ص ١٢ — ١٨ .

(٢) انظر ابن حوقل : صورة الأرض ٣١٩ ، المقدسى : أحسن التقاسيم — طبعة ليدن ٤٧٤ .

(٣) لوبون : حضارة العرب ٦٦١ .

(٤) بروص ، وتسمى أيضاً بروج بفتح الواو ، من أشهر مدن الهند البحرية وأكبرها ( ياقوت ٢ / ١٥٥ ) والخور كالخليج يند من البحر ، والديبل مدينة على ساحل بحر الهند ، وذكر ياقوت أن فاتحها هو الحكم المذكور وليس أخاه المغيرة ( ياقوت ٣ / ٤٨١ ) .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(٦) أحد ملوك الهند البراهمة ، استطاع أن ينتزع إقليم السند من قبائل « السكا » للآرية ، وظل يحكمه حتى فتحه المسلمون ( الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكسانية ص ٢٨ ) .

(٧) البلاذرى ٦١٤ — ٦١٨ .

(٨) المرجع السابق ٦٢٠ .

(٩) البلاذرى ٦٢٤ ، وذكر ياقوت رأيين آخرين حول بناء المنصورة أحدهما أنها بنيت فى عهد المنصور ، والثانى أنها بنيت فى عهد البويهيين ( معجم البلدان ٨ / ١٧٧ ) .

(١٠) البلاذرى ٦٢٤ — ٦٢٦ .

(١١) البلاذرى ٦٢٦ ، ٦٢٧ .

(١٢) الاصطخرى : المسالك والممالك تحقيق الحينى ص ١٠٥ ، الساداتى ص ٨٥

(١٣) ياقوت ٨ / ٢٠١ ، الاصطخرى ١٠٣ – ١٠٥ .

(١٤) ابن حوقل ٣٢٠ ، الاصطخرى ، ١٠٢ .

(١٥) د . حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى ٢٠٤ .

(١٦) ول ديورانت : الجزء الثالث من قصة الحضارة – الهند وجيرانها – ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ص ١٢٥ .

(١٧) د . حسن محمود : الإسلام ، والحضارة العربية ١٩٣ .

(١٨) البلاذرى ٦١٧ ، والبدهوبيت الأصنام .

(١٩) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٦٦ .

(٢٠) العتبى : تاريخ اليمينى ٢ / ٢٥٩ – ٢٨٩ .

(٢١) ابن الأثير ٩ / ١٢٩ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء (مخطوط) مجلد ١ ورقة ٢١٢

(٢٢) العتبى ٢ / ٧٢ .

(٢٣) ابن الأثير ٩ / ١١٦ .

(٢٤) العتبى ١ / ٣٦١ – ٣٦٧ .

(٢٥) العتبى ٢ /٢٥٩ – ٢٨٩ ، ابن الأثير ٩ /٩٨ .

(٢٦) ابن الأثير ٩ /١٢٩ .

(٢٧) العتبى ٢ /٢٧٣ – ٢٧٥ .

(٢٨) أبو الفضل البيهقى : تارتخالبيهقى ٥٨٠ .

(٢٩) ابن الأثير ٩ / ١٩٣ .

(٣٠) ابن الأثير ١٠ /٤٢ .

(٣١) ديورانت : الهند وجيرانها ص ١٢٦ .

(٣٢) ابن الجوزى : المنتظم ٧ /٢٩٢ .

(٣٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء ( مخطوط ) مجلد ١١ ج ١ ورقة ٢١١ .

(٣٤) الكتبى :عيون التواريخ – مخطوط مصور بجامعة الدول العربية حـ ١٣ فى أخبار سنة ٤١٨ .

(٣٥) البيرونى : الجماهر فى الجواهر ١٣٥ .

(٣٦) برشاد : تاريخ الهند فى العصور الوسطى ( باللغة الهندية ) ص ٥٨ .

(٣٧) البيهقى : ص ٤٢٦ .

(٣٨) ابن الأثير ١٠ /٤٢ .

(٣٩) العتبى ١ /٧٤ – ٨٧ .

(٤٠) المصدر السابق ٢ /٧٠ .

(٤١) ابن الأثير ٩ /٧٢ .

(٤٢) العتبى ٢ /٩٤ .

(٤٣) آرنولد : الدعوة للإسلام ٢١٩ – العتبى ٢ /٢٦٥ .

(٤٤) البيهقى : تاريخ البيهقى ٧٤٥ .

(٤٥) ابن الأثير ٩ /٩٨ .
(٤٦) البيهقى ٢٩٦ .
(٤٧) لوبون : حضارة العرب ٢٣٣ ، ديورانت : الهند وجيرانها ١٢٦ .
(٤٨) انظر العتبى ٢ /١٥٠ ، ابن الأثير ٩ /٧١ .
(٤٩) البيهقى ، صفحات ٤٥٨ ، ٦٦١ ، ٦٨٥ .
(٥٠) حمد الله المستوفى : تاريخ كزيده ( ترجمة محمود محروس قشطه ) ص ٤٨ .
(٥١) البيهقى ٦٨٦ ، ٤٢٩ .
(٥٢) الفصل الرابع من تراث فارس ، كتبه عدد من المستشرقين وترجمه عدد من أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة — ص ١٣١ .
(٥٣) انظر عبد الحى الهندى : نزهة الخواطر ١ /٥٨ إلى ٩٢ .
(٥٤) الكفوى : كتائب أعلام الأخبار ( مخطوط ) ورقة ٧٩ .
(٥٥) أحمد الشحات : أبو الريحان البيرونى ص ١٠١ — ١٠٣ .